صدى مدرسة باريس: بين سيميائية العمل وسيميائية الأهواء

الدكتورة: دليلة زغودي
ملحقة مغنية- جامعة تلمسان/ الجزائر

أولا. سيميائية مدرسة باريس:

1. التسمية:

يطلق هذا الاسم على تكتل علمي ضم مجموعة من الباحثين الناشطين في ميادين مختلفة من العلوم الإنسانية والاجتماعية، منذ نهاية الستينات من القرن العشرين، أسسه وترأسه الباحث الليتواني الأصل الفرنسي الجنسية؛" ألجيرداس جوليان غريماس"، واتخذ من " مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية"(l'école des hautes études en sciences sociales) بباريس مقرا لنشاطه؛ لذلك عرفت باسم" سيميائية مدرسة باريس" على غرار" مدرسة فرانكفورت" و" مدرسة براغ" و" مدرسة كونستانس"...

تأسست هذه المدرسة لتجسيد مشروع معرفي يسعى لإنشاء" نظرية عامة تشمل أنظمة الدلالة"[1] اللغوية منها وغير اللغوية، اختير لها اسم" السيميائية"(sémiotique). ومن الأسماء البارزة فيها نذكر: جان كلود كوكي، ميشال أريفي، إيريك لاندوسكي، جان ماري فلوش، جاك جينيناسكا، جوزيف كورتيس، كلود شابرول، فرانسوا راستيي...

2. النشأة والمسار:

يؤرخ لميلاد هذه المدرسة بمقال إبستيمولوجي نشره غريماس سنة 1956 بعنوان " راهنية السوسيرية"(L'actualité de saussurisme) تكشَّف عن وجود مخايل مشروع دلالي عام يتخذ من مبادئ اللسانيات البنيوية، كما استقرت عند سوسير وهلمسليف بعده، قاعدة انطلاق. ما لبث هذا المشروع أن تأسس، واتضحت ملامحه، وبانت أهدافه، وسطرت مبادئه في كتاب" علم الدلالة البنيوي"(Sémantique structurale) الصادر سنة 1966، هذا الكتاب الذي يعد حجر الزاوية في معمار النظرية، وإليه تنسب البداية

العلمية الفعلية لمدرسة باريس حيث وضعت النظرية الوليدة موضعها من العلوم المعنية بالدلالة على غرار؛ علم المعاجم و علم الدلالة التي قد تلتبس بها.

فقد كان لاشتغال غريماس بحقل المعجمية في بداية حياته العلمية[2] أثر في صياغة مشروعه الدلالي(السيميائية فيما بعد)؛ حيث توسم في المعجمية القدرة الإجرائية والمنهجية على بلورة هذه النظرية العامة، لكنه اكتشف ضيقها عن تحمل مشروع مماثل، فانصرف بنظره نحو علم الدلالة سنة 1966، غير أنه لم يكن هو الآخر مؤهلا لاحتضان هذا العبء، عدا عن معاناة هذا العلم، وقتها، من غموض الوضعية[3]، وهو ما جعل غريماس يسمي نظرته تلك" وهم الستينات الكبير". وانتهى به المطاف إلى وضع نظرية جديدة أكثر قوة يتخذ فيها علم الدلالة مكانا جزئيا يناسب إمكانياته.

شهد عقد السبعينات الانطلاقة الحقيقية لنشاط المدرسة، وكثرت إصدارات أعضائها الذين حرصوا على استخدام مصطلح" السيميائية" في عنونة أعمالهم، فأصدر غريماس كتابه" في المعنىI: محاولات سيميائية" سنة: 1970، وكتاب" محاولات في السيميائية الشعرية" 1972، وكتاب" السيميائية الأدبية" لكوكي سنة 1973، و" السيميائية السردية والنصية" لشابرول في السنة ذاتها، وفي سنة 1976: صدر لغريماس؛" السيميائية والعلوم الاجتماعية" وكتاب" موباسان. سيميائية النص: تمارين تطبيقية"، ولكورتيس؛ كتاب" مقدمة في السيميائية السردية والخطابية"...

وتكلل بوضع" المعجم المعقلن لنظرية اللغة" 1979 الذي جمع، إلى اصطلاحية النظرية الغزيرة، المصطلحات المقدمة في حقل الدراسات اللغوية السابقة والمعاصرة، فقد عرف عن المدرسة جنوحها إلى التكثيف الاصطلاحي في الاستعمال، وسعيها الدؤوب إلى وضع لغة اصطلاحية واصفة تتمتع بالدقة والعقلانية التي تتطلبها كل نظرية لغوية للوصول إلى مرتبة اللغة الشكلية.[4]

فعند هذه المحطة كانت المدرسة قد حققت انتصارات علمية هائلة، وتطورت أعمالها في كل اتجاه، ورسمت حدود ميدان ملاءمتها، ووضعت ترسانتها الاصطلاحية الخاصة التي أخذت بعضها من الميادين العلمية التي استفادت منها؛ وخاصة اللسانيات والمنطق والنحو، ونحتت بعضها الآخر لوصف الأجهزة النظرية المستحدثة وإجراءات التحليل الجديدة

والمفاهيم المولدة.

شملت بحوث هذه المدرسة مختلف الحقول المعرفية الإنسانية والاجتماعية، وتناولت مختلف أنماط التدليل، وتفرعت على ميادين؛ الأدب، والسينما، والفلكلور، والخطاب المقدس، والخطاب القانوني، والخطاب الموسيقي، والدراسات الاجتماعية، والطبخ... في فترة وجيزة(السبعينات)، مثبتة صلابة إطارها النظري، ونجاعة آلياتها في التحليل وقدرتها على تحقيق الشمولية عبر إخضاع المتعدد لوحدة القاعدة.

والمدرسة تعود في أصولها إلى الإرث اللساني البنيوي متمثلا بداية في نظرية دوسوسير؛ التي عادوا فيها إلى رسالته للدكتوراه" مذكرة في النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندية- الأوربية"، ويمكن القول إنهم قد أخذوا نظريته اللسانية كاملة كما ظهرت في كتابه الشهير" محاضرات في اللسانيات العامة" بنظامها الثنائي وبمفاهيمها الفردية على غرار " القيمة" و" الاختلاف"... بالإضافة إلى نظرية اللغة التي صاغها هلمسليف وظهرت في كتابه" مقدمة في نظرية اللغة" سنة 1953.

كما تأثروا بدراسات حلقة براغ الفونولوجية وخصوصا جهود جاكبسون وتروبتسكوي حول النظام الفونولوجي، واستفادوا أيضا من الحقول غير اللغوية؛ على غرار: الفلكلور من خلال نظرية" النموذج الوظائفي" التي صاغها الشكلاني الروسي فلادمير بروب، وشكلت نواة" التركيب السردي" في سردية مدرسة باريس، كما تأثرت بالدراسات الميدانية الأنثروبولوجية حول" بنية القرابة" التي قام بها ليفي ستروس، وبما توصل إليه دوميزيل في ميدان الميثولوجيا المقارنة.

ثانيا. من سيميائية العمل إلى سيميائية الأهواء:

1. سيميائية العمل:

عرفت سيميائية السبعينات وبداية الثمانينات باسم سيمائية العمل(sémiotique de l’action)، ويعود السبب إلى نهوضها على مفاهيم التركيب السردي المتمحور حول بعد " العامل"(l’actant)؛ الذي انبثق من مفهوم" الوظيفة" البروبي ويفيد:" عمل الشخصية منظورا إليه من حيث أثره في تطور الحبكة"[5]، فقد ألغي فيه الجوهر الأنطولوجي للشخصيات، وربط وجودها بتحقيق العمل المنوط بها، على شاكلة العامل في النحو.

هذا العمل المترجم على المستوى السردي السطحي بالتحويل الذي يصيب الحالات فيحولها من حالة إلى حالة أخرى؛ حيث تمثل الحالة: وضعا اتصاليا مع الموضوع أو انفصاليا عنه ضمن ثبات" غامض" وسديمي غير دال، لا يغيره- ويثمنه بالتالي بإعطائه معنى- إلا فعل تحويل يقوم به" عامل" بغية الحصول على موضوع يشكل هدف السعي ومرام العمل، ويندرج في إطار برنامج سردي يقدم في أبسط تعريفاته على أنه" تتابع للحالات والتحويلات التي تقوم على أساس العلاقة(فاعل/ موضوع) وتحويلاتها"[6]

فالمعنى، عند المدرسة، ليس جوهرا ثابتا أو مضمونا معينا يحايث الذوات والأشياء، وإنما يتحقق المعنى في السيرورة المنتجة له من خلال الفعل الإنساني؛ ببعديه التداولي والمعرفي. كما يبينه المسار التوليدي الذي يمثل الاقتصاد العام للنظرية، ويرصد انتقال المعنى من شكله التجريدي في الطبقات الخفية للخطاب إلى مستوى التجلي منه، بعد المرور بمرحلة التركيب السردي السطحي المعنية بالوضعيات والعلاقات. لذلك تعد السيميائية، في تصور المدرسة، وصفا لسيرورة الدلالة.

يحتكم هذا المنطق السردي، الذي يرى العالم" حالة أشياء " تتسلسل حلقاتها بين الحالات والتحويلات، إلى مفهوم" التمفصل"(l'articulation) الإبستمولوجي المستند على مقولة" الاختلاف"- أساس القيمة أو شرط الدلالة- كما يرى سوسير[7]، وهو مفهوم عقلاني انفصالي[يعزل الذات عن العالم] ينبني على الفكر وينبذ الحس، ويخضع إلى إدراك متقطع (discontinu) للعالم أقامت عليه" البنيوية" طروحاتها. فتلقفتها مدرسة باريس وجعلتها أحد مبادئها الثلاثة التي عليها مدار النظرية وهي:

1. البنيوية: يعتبر الاختلاف شرط قيام الدلالة، وهي القاعدة التي شاد عليها سوسير وهلمسليف دراساتهما البنيوية، وتعتبر هذه السيميائية بنيوية لأنها لا تتحرى عن المعنى؛ وإنما تستقصد" شكل المعنى"، أو معمار المعنى، الذي يتخذ هيئة علاقات خلافية تضم بين عناصر النص.
2. التحليل المحايث: حيث يتم البحث في الاشتغال النصي الداخلي للدلالة، دون اللجوء إلى المرجع الخارجي؛ فهي تعتبر المعنى أثرا تنتجه العلاقات بين العناصر الدالة داخل النص.
3. مقاربة لتحليل الخطاب: فالمدرسة تستهدف تحليل الخطابات والنصوص، ولا تقف عند

حدود الجملة؛ التي تشكل سقف التحليل اللساني البنيوي.[8]

ومن هذه البنيوية تأتى حرص مدرسة باريس الشديد على الصورنة والشكلنة والتجريد المنطقي، إلى جانب إلغاء الذاتية من ميدان الوصف[9] لتعارضها مع" الموضوعية العلمية" وتملصها من قيود التحليل الشكلي، هذا مع التسيُّج بأسوار الملفوظ في تحليل الخطاب، وعدم اقتحام الجانب التلفظي منه؛ لما يستدعيه من مراعاة للذات المتلفظة وسياقها المرجعي، خصوصا في فترة السبعينات. وهو ما غلَّب عليها طابع الصرامة و الدقة الرياضيين، وجرد أطرها من الحياة التي تكفلها العواطف والانفعالات.

إنها سيميائية عامل يعمل في العالم ويحوله، في غياب ذاتية تقف على ما يعتمل داخله.

2. سيميائية الأهواء:

إن الوعي بتلاشي نفوذ البنيوية والشكلانية رافق مدرسة باريس السيميائية منذ مرحلة التأسيس النظري والتوسع التطبيقي؛ التي لم يكن فيها الحرص على تقليص ميدان الملاءمة باعتماد وجهة نظر" التبسيط" لتحقيق أكبر قدر ممكن من الوضوح، إلا ضرورة استدعاها الحرص على تأسيس نظرية متماسكة يمكنها صياغة أجهزة تمتع بالصرامة المطلوبة لمواجهة ظواهر الدلالة[التركيبية] القابلة للضبط الموضوعي، والخضوع للمعاينة، من أجل ضمان وضعية أصلية مكينة في نظرية المعرفة.

وبقيت قضية" حالات النفس"؛ المتمثلة في المشاعر والانفعالات التي تشغل حيزا هاما في الخطابات الأدبية وغير الأدبية تؤرق المؤسسين، في ظل وضع عرف صعود موجة " التداولية" و" لسانيات التلفظ" التي عصفت باللسانيات البنيوية، وصرفت عنايتها نحو الجانب الذاتي المقصى من مواضيع البحث. وظلت الجوانب الملغاة من مجال الدراسة" مآزق" تعترض سبيل النظرية السيميائية وتشكل ثغرة في أجهزتها المفاهيمية المتطورة.

وقد كان على مدرسة باريس أن تستوعب إشكالية البعد الذاتي للخطاب الممثل في" الأهواء" داخل نظريتها كي تستكمل أبعاد الخطاب، وتضيف إلى البعدين؛ التداولي والمعرفي، اللذين محضت لهما دراستها، البعد الباتيمي(pathémique) المنقوص. وتقلص الفجوة الفاصلة بين" الفكر" و" الحس".[10] وهو ما يتطلب تعديلا شاملا لنظرية المعنى دون المساس بتجانس الإطار العام للنظرية السيميائية، ودون أن تضحي بالمكتسبات الهائلة

للسيميائية البنيوية، أو تحيد عن مشروعها الإبستمولوجي- كما رسمته أول الأمر- بإحداث قطيعة معرفية كاملة معه.

وقد ذكرت آن هينو في كتابها" تاريخ السيميائية" أن التحول صوب الأهواء بدأ مبكرا؛ حيث قدم نص" من أجل سيميائية الأهواء" في نشرة خاصة بالجماعة السيميو- لسانية سنة 1978؛ بغرض طرح القواعد النظرية للقاء الأول حول هذا الموضوع، الذي استغرق سنة 1978-1979.[11]

أما أول دراسة للأهواء، في تاريخ السيميائية، فتعود إلى تحليل غريماس لهوى " الغضب" في كتابه" في المعنىII" سنة 1983، الذي تقصى فيه مفردة" الغضب" معجميا، وعمل على استجماع مرادفاتها اللغوية، مع ما تستجلبه من معان أهوائية، مركزا، في دراسته، على الناحية التركيبية، وتركيبته الجهية بالخصوص. إذ توصل من دراسته المعجمية إلى كشف طبيعته بين- الذاتية، واستخلص له برنامجا سرديا يتألف من ثلاث مراحل هي:

الحرمان ⟵ السخط ⟵ العدوانية[12]

كما يعود لهذا الكتاب أيضا دور آخر في هذه السبيل، وهو يتعلق بإقامة نظرية " جهات الكينونة"(modalités de l'être) في إطار النظرية العامة للجهات التي ضمَّنها غريماس هذا الكتاب، وبيَّن فيه ضرورة استكمال جهات الفعل(modalités de faire) بجهات الكينونة[13] المعنية بتقصي" حالات نفس" الذات أثناء سعيها لاكتساب موضوع القيمة على المستوى السردي.

كما ورد مدخل" هوى" المعجمي في الجزء الثاني من" المعجم المعقلن لنظرية اللغة" سنة 1986.

إلا أن المقاربة السيميائية للأهواء سرعان ما عرفت نضجا كبيرا مع حلول التسعينات، ومع الكتاب التأسيسي الذي صنفه غريماس بالاشتراك مع جاك فونطاني وعنوناه بـ" سيميائية الأهواء؛ من حالات الأشياء إلى حالات النفس" (1991)؛ حيث تحولت السيميائية إلى دراسة البعد الأهوائي للخطاب، ومحورت اهتمامها حول البحث عن الشروط الإبستمولوجية السابقة على ظهور المعنى، إلى جانب استقصادها لمناطق الدلالة الأخرى

المضمرة للعاطفة والجسد...

حيث يتموضع الهوى، في المرحلة السابقة عن الدلالة، باعتباره سلسلة من حالات الانفعال التي تتعلق بكينونة الذات وليس بفعلها؛ فوجود الذات الحاسة يسبق ظهور الذات العارفة المعتمدة على التمفصل. كما أن الانفعال يتقدم على المعرفة، والتجربة الحسية أولية على البناءات العقلية. لذلك ينهض الانفعال بتوفير الشروط القبلية لقيام الدلالة قبل أن تتدرج عبر تراتبية المسار التوليدي.

وفي سبيل استيعاب هذه المرحلة السابقة، أعيد تنظيم عمليات المسار التوليدي، وروجعت مراتبه وفق التصور الجديد لمقاربة الدلالة؛ فأضيف المستوى الإبستمولوجي الذي تبوء به مفاهيم" التوترية"(tensivité) و" الاستهواء"(la phorie) و" الصيرورة" (devenir) المستحدثة، وهي ترصد نشوء المعنى الأهوائي من أولياته الهلامية، وتعرضه للاستقطاب الذي ينقله من الوضعية الأولية الحسية المهوشة[لأن المتصل الحسي غير دال] ليسلمه إلى المستوى السيميو- سردي، أين يخضع للتشظية والانشطار إلى مقولات تؤسس البنية الأساسية للدلالة في الخطاب، قبل أن يواصل مسيره نحو مستوى التجلي الخطابي.

وإذا كان المنظور المتتبع لـ" حالات الأشياء" لا يهمه من الذات إلا عملها المبدل للأحوال حتى سميت" عاملا"، في حين أغفل كل ما يمت بصلة إلى حالة نفس هذه الذات أثناء لهاثها للحاق بالموضوع المطلوب؛ لأن الذات وفق المنظور السردي التحويلي، أشبه ما تكون بالآلة المبرمجة التي تلتزم بما برمجت له على نحو مثالي لا يشوبه تعب أو تقاعس أو تنصل من البرنامج السردي المسطور، في الوقت الذي تعجز الذات الإنسانية عن التقيد بهذه الآلية بسبب طبيعتها التي تخضعها للضغوط النفسية والجسدية وتقصر بها عن الكمال[14]. فإن المنظور الجديد يركز على" حالات نفس" هذه الذات من خلال تركيزه على كينونتها وليس على فعلها، مبينا أن الذات لا تفعل فقط بل تحمِّل فعلها" شحنة انفعالية"[15] لا يتوقع منها الاكتفاء بدور المرافق وإنما" تحدد درجة الكثافة التي يتحقق من خلالها هذا الفعل"[16].

يظهر الفرق بين العمل والهوى إذن، على المستوى العميق والمجرد، كفرق بين الكينونة والفعل.

لم تلغ سيميائية الأهواء، إذن، ما سبقها من بحوث كانت تصب في مجرى سيميائية

العمل، فإضافة البعد الأهوائي للخطاب إلى اهتمام سيميائية مدرسة باريس لم يكن سوى انفتاح واستيعاب لأقاليم جديدة لم تقوض شيئا من البناء السيميائي العتيد، وإنما أغنته بالمفاهيم الجديدة ووسعت دائرة اشتغاله، حين جعلته يمتد إلى مناطق جديدة من الإنساني. وقامت لتلبي مطلبا دلاليا آخر يمثله" المحسوس"(le sensible) الذي يسم العمل بميسم خاص، ويفرده بصبغة ذاتية، بحيث يزيل الفاصل بين" الأنا" و" العالم" ويخضع إلى إدراك " متصل"(continu) يقوم على الاستمرارية والانفعال بالكون المحسوس.

وعلى الرغم من تعدد الروافد المعرفية التي تغذي المدرسة إلا أن أعمال" موريس ميرلوبونتي" تبقى المَعين الرئيس للفكر الغريماسي؛ ومن طروحاته حول فينومينولوجيا الإدراك ومركزية التجربة الحسية للجسد، استقى غريماس ركائز نظرية الأهواء، حيث تطلب ضم إشكالية الأهواء إلى اهتمام سيميائية الخطاب؛ إدراج الجسد الخاص داخل النظرية باعتباره مصدر البعد العاطفي، ومبعث الأهواء، والمسؤول عما ينالها من تغير وتعديل، زادت من تجذيره" لسانيات التلفظ" التي أعادت الذات إلى مركز الخطاب، وتبنت السيميائية مفاهيمها من خلال اعتمادها لمنظور" الخطاب بالفعل".

ولم يكن استبعاد الجسد من النظرية الأساس إلا ثمرة من ثمار نزوع البنيوية إلى إلغاء الذات الإنسانية من تصوراتها ومبادئها النظرية، وتمنح هذه العودة الجسدية للنظرية بدائل عن الحلول المنطقية بحلول فينومينولوجية تستلزم حضور الجسد بوصفه ظاهرة إدراكية تتمتع بوجود محسوس[17].

ثالثا. التقبل العربي للسيميائيتين:

ليس بخاف الانتشار الواسع لمدرسة باريس السيميائية في الأوساط العلمية والأكاديمية العربية، إذا ما قورنت بالمدارس السيميائية الأخرى؛ الأمريكية والأوربية على حد سواء، بل يمكن الزعم أنها المدرسة الأكثر تقبلا خاصة في منطقة المغرب العربي لأسباب منطقية ترتبط أساسا بالموقع الجغرافي(القريب من فرنسا)، وباللغة(التي كتبت بها مصادرها الأساسية وأهمها طبعا كتابات غريماس)؛ وهي اللغة الثانية في هذه الدول التي كانت، سابقا، مستعمرات فرنسية، هذا بالإضافة إلى أثر البعثات العلمية في هذه البلدان؛ التي كان لوجهة فرنسا فيها نصيب الأسد؛ فعلى أيدي هؤلاء المبعوثين وفدت إلينا النظرية وتعرفنا قسماتها.

غير أنه يمكن ملاحظة التفاوت في تلقي سيميائية المدرسة بين مرحلة العمل ومرحلة الأهواء؛

1. تلقي سيميائية العمل:

صحيح أن التصانيف العربية حول مدرسة باريس[مرحلة العمل] قد تأخرت قليلا؛ فقد شهدت انطلاقتها الفعلية في نهاية الثمانينات حين أخرج محمد الناصر العجيمي كتابه " في الخطاب السردي نظرية غريماس" سنة 1987*، ولكن هذا شيء طبيعي؛ إذا ما روعي اكتمال ملامح النظرية في نهاية السبعينات مع" المعجم المعقلن" سنة 1979. مع ما يستغرقه استيعاب النظرية من وقت وما يتطلبه ضبط المصطلحات وفهمها وترجمتها من جهد.

وغزرت في التسعينات؛ حيث أصدر حميد لحمداني كتابه" بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي" سنة 1991، وكتب عبد الحميد بورايو" منطق السرد" الذي اعتمد فيه أدوات تحليل مدرسة باريس سنة 1994، وأصدر سعيد بنكراد كتاب" مدخل إلى السيميائيات السردية" سنة 1994، وأخرج كل من سمير المرزوقي وجميل شاكر كتابهما المشترك" المدخل إلى نظرية القصة" الذي أخلص صافيا لنظرية غريماس السردية.... وهي كلها تبسط تفاصيل النظرية، وتستعرض قدراتها في التحليل عبر تطبيق آلياتها على نصوص عربية؛ رسمية وشعبية.

هذا ناهيك عن الكتب التي تناولت نظريات السرد المعاصرة؛ فراحت تعرض نظرية غريماس السردية إلى جانب غيرها من النظريات البنيوية التي شاعت في النصف الثاني من القرن العشرين. كما عرفت المدرسة رواجا ملحوظا في الأوساط الأكاديمية، وأقبل عليها الطلبة والباحثون في إعداد رسائلهم وأطروحاتهم الجامعية، وأدرجت في برامج بعض المقاييس المقررة على طلبة أقسام الآداب واللغة الفرنسية والثقافة الشعبية. وصارت نظريتها في السرد، النهج المفضل لكل باحث في ميدان القص.

أما في العشرية الأولى من هذا القرن؛ فقد بلغت حدا يصعب معه عدها، سواء منها ما تعرض لشرح النظرية، أو ما طبق إجراءاتها في تحليل النصوص السردية والشعرية.

وإذا حاولنا النبش في أسباب هذا الاحتضان الواسع لهذه المدرسة بالذات، رغم أنها من أصعب المدارس وأعقدها، وأشدها عناية بالمصطلحات، وأكثرها جنوحا نحو التجريد

والصورنة والشكلنة. فضلا عن شبهة البنيوية الملتصقة بها، فإنه يمكن عزوها إلى ما يلي:

1- قرابتها الوثيقة باللسانيات الحديثة التي كانت لا تزال علما جديدا وافدا على الساحة العربية يثير إعجاب الباحثين العرب بنظرياته اللغوية، ويبهرهم بفتوحاته العلمية، واجتياحه للميادين المعرفية الإنسانية والاجتماعية وحتى التكنلوجية.

2- عنايتها بالسرد، فقد انصرفت جهودها، منذ التأسيس، إلى صياغة نظرية سردية بنيوية، في وقت عرف صعود فن الرواية، وتربعه على عرش الأجناس الأدبية عربيا وعالميا، في ظل تراجع سلطان الشعر وتقلص نفوذه. حيث ظهرت الكثير من النظريات السردية محاولة الإمساك بآلية الفعل القصصي على غرار نظرية" جيرار جينيت" ونظرية" تودوروف"...

3- رغم ما يلوح على المدرسة من تعقيد بسبب انتحائها سمت الدقة والصرامة العلميتين، إلا أنها تبقى نظرية واضحة بحكم مرجعيتها المعروفة، وقرب مصادرها العلمية[اللسانيات، المنطق، الفلكلور، الأنثروبولوجيا...] ووقوع هذه المصادر في متناول الباحث؛ فمتى ما ألم بها، أمكنه تفكيك مفاصل النظرية بسهولة ويسر.

4- حظيت نظرية المدرسة بالشرح المستفيض من قبل أعضائها، فقد انهمرت أعمالهم في شكل كتب ومقالات، شفعوا فيها المفاهيم والإجراءات بالنماذج التطبيقية المكثفة؛ مما بدد لبس النظرية، وأثبت فاعليتها ونجاعتها في التحليل، وزود متقصيها بمنهجية الدراسة.

5- تمتع النظرية بالمرونة اللازمة للتعميم على أنواع الخطابات المختلفة، ما جعلها مصبا لميادين البحث المتباينة من أدب وسياسة ودين واجتماع وتاريخ وإعلام...

6- تتويج الجهاز المعرفي والاصطلاحي، بقاموس يشتمل موادها الاصطلاحية جميعا، ويستفيض في بسطها، وهو ما يقربها من المتلقي ويشرح له ما غمض ويذلل ما صعب.

7- قيامها على الفكر والمنطق والشكلنة التي تهيئها لاتخاذ طابع عام، وتنفي عنها صبغة المحلية. التي قد تحدد رقعة انتشارها.

8- ساهم تناولها للفلكلور واعتناؤها بالخرافات والأساطير والقصص الشعبية في رواجها بين أوساط الباحثين في الثقافة الشعبية، وكانت الأهمية التي منحتها للنص الشعبي، سببا في إخراج النص الشعبي العربي من هامشه وإدراجه جنبا إلى جنب مع نظيره الرسمي الذي لطالما نبا عنه بالتفضيل والعناية، وصرنا نعثر عليهما في المؤلف نفسه يخضعان للإجراءات

التحليلية ذاتها.

9- دقة الأجهزة التحليلية التي وضعتها المدرسة، من مثل؛" المربع السيميائي" و" النموذج العاملي" و" المقطوعة السردية"، وتميزها بالطابع الصوري اللازم لضمان صلاحية التطبيق على النصوص المختلفة من جهة، مع الحفاظ على الاستقلالية عنها والبقاء في حدود التجريد من جهة أخرى. وهو ما جعل بعض الدراسات تقتصر على جهاز واحد منها وتخضع النصوص لآليته؛ فنصادف مثلا بعض التحاليل التي تكتفي باستعارة المربع السيميائي من النظرية للوقوف على النواة الدلالية وانشطاراتها المسؤولة عن سيرورة المعنى في النص.

10- ولا ننسى طبعا عاملا هاما لعب دورا محوريا في إشاعة سيميائية هذه المدرسة[مرحلة العمل]، وهو عامل طلبة البعثات إلى فرنسا الذين تتلمذوا مباشرة على أعضاء مدرسة باريس(غريماس وكورتيس خاصة) في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، وعادوا إلى بلدانهم(في المغرب العربي بالتحديد) لينقلوا إلى طلبتهم النظرية السيميائية كما درسوها في معقلها، والنماذج كثيرة نذكر منهم مثلا: سعيد بنكراد، ومبارك حنون...(من المغرب)، رشيد بن مالك...(من الجزائر)

ربما تكون هذه من أهم أسباب استشراء سيميائية العمل في الوطن العربي عامة والمغرب العربي على وجه الخصوص.

2. تلقي سيميائية الأهواء:

كان من المفترض أن يستتبع هذا الاحتفاء الكبير بسيميائية العمل التي قدمتها مدرسة باريس احتفاء مماثلا بمشروعها حول الأهواء؛ خصوصا وأن الأرض كانت مهيأة لاحتضان منجزات المدرسة؛ بعد أن تكوّن فيها الطلبة والباحثون العرب، وتمرسوا على إجراءاتها وأدواتها في التحليل. غير أن ذلك لم يحدث، فمنذ ظهور الكتاب التأسيسي في الأهواء لغريماس وفونطاني سنة 1991- دون الأخذ بالاعتبار إرهاصات هذا المشروع التي بدأت منذ نهاية الثمانينات- إلى حين ظهور الأعمال العربية التي تتعرض لهذه النظرية الجديدة، استغرق الأمر قرابة عقدين من الزمن.

حيث طفقت تظهر هنا وهناك، على استحياء، بعض المقالات التي تتطرق لإشكالية الأهواء داخل مدرسة باريس؛ على غرار: مقال محمد الداهي:" سيميائية الأهواء"

المنشور بمجلة" عالم الفكر" المجلد 35 سنة 2007، ومقال محمد بادي:" سيميائيات مدرسة باريس: المكاسب والمشاريع(مقاربة إبستمولوجية) المنشور في العدد نفسه من المجلة المذكورة. وقد قارب فيه الإبستمولوجيتين اللتين تحكمان كلا من سيميائية العمل وسيميائية الأهواء.

ظهر بعد ذلك كتاب الداهي" سيميائية السرد: بحث في الوجود السيميائي المتجانس" سنة 2009، وكانت الخطوة الأجرأ في هذا المسعى؛ ترجمة سعيد بنكراد الرائدة لكتاب غريماس وفونطاني" سيميائيات الأهواء" سنة 2010. ولا يزال الخوض في هذا المضمار محتشما؛ يظهر في بعض المقالات أو المصنفات النادرة من مثل كتاب جميل حمداوي:" بناء المعنى السيميائي في النصوص والخطابات" الصادر سنة 2013...

أما في الأوساط الأكاديمية فإن الحال لا تختلف كثيرا؛ حيث يقل إقبال الباحثين والطلبة على موضوع الأهواء في إعداد رسائلهم وأطروحاتهم.

وإذا حاولنا البحث عن دواعي هذا الاحتشام في الإقبال على سيميائية الأهواء التي تحولت بسرعة كبيرة من مشروع إبستمولوجي إلى نظرية مكتملة يتسع نفوذها يوما بعد يوم، لتطال قضايا الجسد والمحسوس والبصمة... فإنه يمكن عزو بعضها إلى ما يلي:

- لقد أشار سعيد بنكراد في مقدمة ترجمته لكتاب" سيميائيات الأهواء" إلى بعض أسباب هذا الإحجام وأرجعها إلى:

1. استعصاء خطاب الأهواء واستغلاقه في حال ما لم يكن الدارس محيطا بالخلفيات المعرفية التي يستند عليها.

2. زيادة على ما تقدمه نظرية الأهواء من جديد وطريف، فإنها تعرض أيضا اصطلاحية جديدة غاية في التعقيد؛ تعود إلى حقول معرفية مختلفة، وظفت داخل النظرية لتدل على مقاصد جديدة مستحدثة.

3. طابع" النخبوية" الذي يسوده؛ فهو لا يرفق مفاهيمه بالأمثلة الشارحة التي" قد تقرب المفهوم إلى القارئ أو توضح مراميه أو تشير إلى ذاكرته"[18]، كما يضمر قصدياته الفلسفية ولا يبوح بها.

4. تتطلب المشاريع العلمية الجادة العمل العلمي الجماعي، المفقود في الوطن العربي[19]، وخطاب الأهواء ليس قضية علمية يمكن أن ينهض بها فرد واحد، بل هي قضية ثقافة وفكر

أمة كاملة.

5. يمكن أن نضيف على هذه الأسباب، ما يتعلق بالنظرة الثقافية العربية للأهواء؛ المتصلة بالدين أساسا، فقد تناولها الفقهاء المسلمون، في الغالب، بالذم والتحذير ودعوا إلى تفاديها ومجاهدة النفس عليها. وبنوا حكمهم هذا على مجموع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تضمنت الحديث عن الهوى مثل قوله تعالى:(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى. فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى)[20]. وقوله صلى الله عليه وسلم" الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَه وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ"[21]. انتقلت هذه النظرة إلى اللغة العربية وسادت معاجمها؛ يقول ابن منظور مثلا:" وهوى النفس: إرادتها، والجمع الأهواء. التهذيب: قال اللغويون الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه؛ قال عز وجل: ونهى النفس عن الهوى؛ معناه نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل[...] ومتى تكلم بالهوى مطلقا لم يكن إلا مذموما حتى ينعت بما يخرج معناه كقولهم هوى حسن وهوى موافق للصواب..."[22]

لهذا ربما بقي المتلقي العربي على مسافة من مباحث الأهواء، يرقبها بحذر منتظرا المزيد من التوضيح الذي قد يبدد خشيته من اقتحامها.

6. يحتكم خطاب الأهواء إلى الطابع المحلي الذي تتكفل به الممارسة التلفظية الخاصة بكل مجتمع لغوي؛ إذ" تتضمن كل لغة تصورها الخاص أو مَفْهَمَتَها الخاصة لعالم الأهواء، وعلى اسمية معينة خاضعة لمؤثرات خارجية وإيحاءات اجتماعية وثقافية"[23]، وهو ما يتطلب وجود صنافة أهوائية خاصة بكل ثقافة، يكون للمعاجم دور مركزي في إعدادها، تفتقر إليها معاجمنا العربية حاليا، ما يضع بالتالي عقبة كأداء في طريق الباحث العربي.

الهوامـــــش:

1. Coquet.J.C, l'école de paris, in; Sémiotique; l'école de paris, Hachette, Paris, 1982, p. 05.

2. فقد أنجز أطروحته للدكتوراه في المعجمية، وتناول مفردات الموضة في الصحف سنة 1948.

3. Coquet.J.C, l'école de paris, p.17.

4. تنظر: مقدمة؛

- Greimas.A.J- Courtés.J, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Paris, Hachette, 1979, p. IV.

5. Propp V, Morphologie du conte, paris, Seuil, 1970, p. 31.

6. Groupe d'entrevernes, Analyse sémiotique des textes; introduction-théorie- pratique, PUL, 4eme édition, 1984, p. 16.

7. De Saussure.F, Cours de l'linguistique générale, Talantikit, Béjaïa, 2002, p.141.

8. Groupe d'entrevernes, Analyse sémiotique des textes, p. 08

9. Greimas.A.J, Sémantique structurale: recherche de méthode, Paris, Larousse, 1966, p. 153.

10. ينظر: غريماس. أ.ج- فونطانيي.ج: سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ت.بنكراد. سعيد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2010، ص. 68.

11. ينظر، هينو.آن: تاريخ السيميائية، ت. بن مالك. رشيد، دار الآفاق ومخبر الترجمة والمصطلح، الجزائر، 2004، ص ص. 121-122.

12. Greimas.A.J, Du sensII: Essais sémiotiques, Paris, Seuil, 1983, pp. 225-246.

13. ينظر: نفسه، ص ص. 93-101.

14. Fantanille.J, Soma et séma: figures du corps, Maisonneuve et Larose, Paris, 2003, p. 31.

15. بنكراد: مقدمة ترجمة كتاب" سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس"، ص. 12

16. نفسه، ص. 12

17. Fantanille.J, Soma et séma, p. 15.

* وإن كان" علي العشي" قد سبقه حين قدم أطروحته لنيل شهادة الكفاءة في البحث العلمي سنة 1976، بعنوان:" تحليل سيميائي للجزء الأول من كتاب الأيام لطه حسين" من الجامعة التونسية، غير أنها لم تخصص لمدرسة باريس وحدها، بل جمعت الجهود السيميائية المتفرقة، كما أنها تظل بحثا أكاديميا لا يحظى بالانتشار المتاح للكتاب المطبوع.

18. بنكراد. سعيد، مقدمة ترجمة كتاب" سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس"، ص. 41

19. ينظر المرجع نفسه، ص ص. 40-41.

20. سورة النازعات: الآية 40-41.

21. الترمذي: الجامع الكبير، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1998، المجلد الرابع، ص ص. 246-247.

22. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، المجلد 15، مادة: هوى، ص. 372

23. الداهي. محمد: تحليل سيميائي- تلفظي للخطاب الروائي العربي الجديد (1990-1994)، مساهمة في إعادة بناء الكلام الروائي سيميائيا، مخطوط أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية: 2001-2002، ص. 111

مكتبة المداخلة:

- القرآن الكريم

1. **باللغة العربية:**

- الترمذي: الجامع الكبير، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1998.
- الداهي. محمد: تحليل سيميائي- تلفظي للخطاب الروائي العربي الجديد (1990-1994)، مساهمة في إعادة بناء الكلام الروائي سيميائيا، مخطوط أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية: 2001-2002.
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

2. المترجمة إلى العربية:

- غريماس. أ.ج- فونطانيي.ج: سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ت. بنكراد. سعيد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2010.
- هينو. آن: تاريخ السيميائية، ت. بن مالك. رشيد، دار الآفاق ومخبر الترجمة والمصطلح، الجزائر، 2004

3. باللغة الفرنسية:

- De Saussure. F, Cours de l'linguistique générale, Talantikit, Béjaia, 2002
- Greimas.A.J- Courtés.J, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Paris, Hachette, 1979.
- Coquet.J.C, l'école de paris, in; Sémiotique; l'école de paris, Hachette, Paris, 1982
- Greimas.A.J, Du sens II: Essais sémiotiques, Paris, Seuil,1983.
- Fantanille.J, Soma et séma: figures du corps, Maisonneuve et Larose, Paris, 2003, p. 31.
- Groupe d'entrevernes, Analyse sémiotique des textes; introduction- théorie- pratique, PUL,4eme édition, 1984
- Propp.V, Morphologie du conte, paris, Seuil, 1970
-Greimas.A.J, Sémantique structurale: recherche de méthode, Paris, Larousse, 1966.